أ.د. حسن حبشى

(١٩١٥-٢٠٠٥م)

مؤرخاً للحروب الصليبيـة

إعـداد

أ.د محمد مؤنس عوض

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

بجامعتى عين شمس والشارقة

أ.د. حسن حبشى (١٩١٥-٢٠٠٥م)

مؤرخاً للحروب الصليبية

يتناول هذا البحث بالدراسة ؛ تعريفاً بالمؤرخ المصرى الرائد أ. حسن حبشى[(١)] (ت ٢٠٠٥م) وكذلك بإسهامه فى مجال تاريخ الحروب الصليبية بمن أجل تحديد مكانته بين مؤرخى مصر خلال تلك المرحلة البارزة من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى.

لقد ولد أ. حسن حبشى يحيى محمود بالقاهرة عام ١٩١٥م قبل أربع سنوات من إندلاع ثورة ١٩١٩م ضد الاحتلال البريطانى الغاشم ، وهو من أصول مغربية ونزحت أسرته إلى مصر وتدرج فى مراحل التعليم إلى حصل على ليسانس الآداب، وتحديداً فى قسم التاريخ بتقدير امتياز من جامعة القاهرة وذلك عام ١٩٣٨م مما د ل على تفوقه المبكر ، ثم نال دبلوم التربية وعلم النفس فى العام التالى مباشرة أى ١٩٣٩م من معهد التربية العالى للمعلمين وعلى نحو دل على طموحه العلمى.

واصل ذلك المؤرخ الرائد رحلته العلمية بتسجيل درجة الماجستير فى موضوع نور الدين والصليبيين تحت إشراف المؤرخ الرائد أ. محمد مصطفى زيادة ، وبالفعل حصل على الماجستير عام ١٩٤٦م ، ونظراً لتفوقه إبتعث إلى بريطانيا، وبالتحديد جامعة لندن حيث مكث هناك تسع سنوات كاملة وحصل على الدكتوراة عام ١٩٥٥ بعد ثلاث سنوات من إندلاع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م الخالدة وبالتالى فهو ابن ثورتى ١٩١٩م ، ١٩٥٢ م بأرض الكنانة.

تعد المرحلة التى أمضاها ذلك المؤرخ فى بريطانيا أخصب سنوات عمره علمياً وذلك وفق ما ذكره شخصياً لكاتب هذه السطور، فقد تعامل مع عدد من كبار المستشرقين مثل برنارد لويس، وأتصل بالمستشرق الإيطالى ديلافيلا عندما سافر إلى إيطاليا، وقد أفاده سفره إلى أوروبا فى إجادته للانجليزية والفرنسية ومعرفته باللاتينية.

عاد مؤرخنا أدراجه إلى مصر وعمل مدرساً بقسم التاريخ فى كلية الآداب جامعة عين شمس ثم أستاذاً مساعداً ثم أستاذا للتاريخ الإسلامى والوسيط عام ١٩٥٥م بعد ثلاثة سنوات من قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م الخالدة.

وفيما بعد سيعمل كملحق ثقافى لسفارة مصر فى إسلام آباد كذلك عمل مترجما شخصياً للزعيم جمال عبد الناصر.

قدم ذلك المؤرخ الرائد العديد من الأعمال العلمية للمكتبة العربية سواءً مؤلفات أو كتب مترجمة أو تحقيقات. ومن مؤلفاته :

أولاً : الكتب

١- نور الدين والصليبيون حركة الإفاقة الإسلامية فى القرن السادس الهجرى، ط القاهرة ١٩٤٩م.

٢- الشرق العربى بين شفتى الرحى، حملة القديس لويس على مصر والشام .ط القاهرة ١٩٤٦م.

٣- الحرب الصليبية الأولى .ط القاهرة ١٩٥٨م.

٤- الجزائر عبر التاريخ (بالإشتراك) ط. القاهرة ١٩٥٧م.

٥- قصة إسلام الصحابة (١٠) أجزاء .ط القاهرة ١٩٩٧م.

٦- سرايا رسول الله (ص) جزآن ط. القاهرة ٢٠٠١م.

٧- صحابيات صنعن التاريخ، ط القاهرة ٢٠٠٢م

٨- تاريخ العالم الإسلامى منذ الهجرة ودراسة عرضي.ة للعالم منذ الهجرة حتى الوقت الحاضر (٤) أجزاء.ط القاهرة .

ثانياً : البحوث

١- الإحتكار فى العصر المملوكى. حوليات كلية الآداب – جامعة عين شمس عام ١٩٦٦م.

٢- أضواء جديدة على هجوم القبارصة على الأسكندرية للنويرى ،المجلة التاريخية المصرية عدد عام ١٩٦٧م.

٣- "الشيال مؤرخاً" المجلة التاريخية المصرية عدد عام ١٩٦٧م.

ثالثاً : الترجمة :

١- مجهول ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ط. القاهرة ١٩٥٨م.

٢- طاغور، رحلة طاغور فى عالم القرن الخامس عشر، ط القاهرة ١٩٦١م.

٣- جوانفيل، القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام، ط القاهرة ١٩٦١.

٤- روبرت كلارى ، فتح القسطنطينية ، ط القاهرة ١٩٦٤م.

٥- فلهاردوين، مذكرات فلهاردوين عن الحرب الصليبية الرابعة، ط جدة ١٤٠٣هـ

٦- وليم الصورى – الحروب الصليبية (٤) أجزاء، ط . القاهرة ١٩٩٤م.

٧- مجهول، ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين ، جزآن، ط . القاهرة ١٩٩٨م.

٨- أنا كوميثا، ألكسباد، المجلس الأعلى للثقافة، ط القاهرة ٢٠١٠م.

٩- ترتون، أهل الذمة فى الإسلام ، ط القاهرة .

١٠- دونالد نيكول، معجم التراجم البيزنطية، ط القاهرة ٢٠٠٣م.

١١- بروكوبيوس ، التاريخ السرى (تحت الطبع) .

١٢- كيلى ، تاريخ بابوات روما منذ القديس بطرس حتى سنة ٢٠٠٠م (٣) أجزاء (تحت الطبع).

١٣- أمبرواز، حملة ريتشادر الصليبية (ملحمة شعرية تقع فى (١٣٥٥٢ بيتاً) جزأين (تحت الطبع).

١٤- نيكتاس خونياتس ، الإمبراطورية البيزنطية (تحت الطبع) .

[توفى مؤخنا الرائد قبل أن يرى الأعمال الأربعة المترجمة الأخيرة].

١- التحقق ، مجهول . حوليات دمشقية ، ط القاهرة ١٩٦٨م .

٢- ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ط القاهرة ١٩٦٩م.

٣- ابن الصيرفى ، نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان (٤) أجزاء ط القاهرة ١٩٩٥م.

٤- ابن حجر العسقلانى، أنباء الغمر بأبناء العمر (٤) أجزاء، ط القاهرة ١٩٩٨م.

٥- البقاعى ، عنوان الزمان فى تراجم الشيوخ والأقران (جزأن)، ط القاهرة ٢٠٠٠م

وبعد رحلة عطاء متدفق رحل ذلك العالم يوم ٢٠٠٥/٧/١٦م فأسف على رحيله تلاميذه الذين أذكر منهم أ.د. عبد الوهاب خلاف ، أ.د. عماد الدين خليل، أ.د. نجاح صلاح الدين القابسى، وغيرهم.

هكذا قدم ذلك المؤرخ الرائد للمكتبة العربية عدداً كبيراً من المؤلفات التى لا يستطيع القيام بها إلا من كان فعلا صاحب رسالة علمية حقيقية وفى نفس الحين عمل لخدمة وطنه المفدَّى مصر.

من الممكن التأمل فى إسهامات مؤرخنا فى مجال الحروب الصليبية من خلال كتبه ونور الدين والصليبيون ط القاهرة ١٩٤٦م . الشرق العربى بين شقى الرحى حملة القديس لويس على مصر والشام، ط القاهرة ١٩٤٩م والحرب الصليبية الأولى، ط القاهرة ١٩٥٨م ناهيك عن المقدمات التى وضعها للمصادر الصليبية التى ترجمها ودلت على رؤيته للعصر المذكور.

واقع الأمر، يعد كتاب مؤرخنا بعنوان نور الدين والصليبيون، الذى صدر بالقاهرة عام ١٩٤٩م، وقد وقع فى (١٧٠) صفحة؛ بمثابة الدراسة الرائدة عن ذلك السلطان المجاهد الذى تولى قيادة المسلمين فى بلاد الشام خلال المرحلة الممتدة من عام ١١٤٦م إلى ١١٧٤م، ويوصف بالفعل بأنه أستاذ صلاح الدين الأيوبى (١١٧١-١١٩٣م) والذى تمكن من اكتشافه عسكرياً، وسياسياً، ويُعد فعلا المخطط الأعظم لتحرير بيت المقدس من أيدى الصليبيين، دون إغفال جهود من سبقه من قادة الجهاد الإسلامى، وكذلك صلاح الدين الأيوبى ذاته .

لقد حصل مؤرخنا على الماجستير من خلال دراسة عن نور الدين محمود وعلاقاته بالصليبيين تحت إشراف أستاذه محمد مصطفى زيادة وقد قسم خطة الكتاب على النحو التالى :

الفصل الأول : القوى الإسلامية والمسيحية بالشرق الأدنى فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى.

الفصل الثانى : السلطان نور الدين وبلدوين الثالث ملك بيت المقدس (١١٤٣-١١٥٤م).

الفصل الثالث : نور الدين وبقايا الثليبيين بالشام .

الفصل الرابع : التنازع على مصر بين السلطان نور الدي والملك أمورى.

الفصل الخامس : مظاهر الحياة العامة فى المجتمع الصليبى والإسلامى فى الشرق الأدنى خلال القرن الثانى عشر .

يلاحظ هنا أن قيمة الكتاب المذكور تتمثل فى التالى :

أولاً : تعد الدراسة الأولى فى مجالها عن نور الدين محمود وعلاقاته بالصليبيين على نحو أكاديمى مما ضمن لصاحبها الريادة فى المجال المذكور.

ثانياً : حرص مؤرخنا الرائد على التعامل مع نور الدين ليس من خلال الصورة الذهنية المعتادة وفى ذلك قرر ما نصه : " .. لم أتعرض لما بنى من المبانى والعمائر والربط والمساجد، بل إننى شديد الكراهية للصورة التى يحاول بها بعض الكتاب المسلمين الترجمة لنور الدين إذ يتخيله البعض رجلاً تقياً سبهللة فى زى ملك ، ألقت إليه الصدفة بزمام الحكم وما ذلك عن كراهية منى لتلك الصفات وهى جديرة بالاحترام ولكن لما يرسمونه له من صورة الدرويش، على حين أن الذين يستعرضون تاريخه يتجلى لهم فى وضوح مقدار الدهاء الذى إنطبع عليه السلطان نور الدين وهو يحرك الشخصيات المختلفة لتحقيق فكرة الجبهة الإسلامية المتحدة.

"مجمل القول أن نور الدين – فى أى وضع – تساوت فيه نواحى الإبداع والعظمة من الناحيتين الروحية والسياسية"(٢).

وفى تصورى أن هذه الناحية أهم ما قام به ذلك المؤرخ الرائد حيث أراد تقديم تصوراً جديداً لدور ذلك السلطان وكتب ذلك الرأى مبكراً عام ١٩٤٩م مما أكد على ريادته، ويؤكد ضمنياً على إن لديه منهجا خاصا فى التعامل مع تاريخه لا يتأثر برؤية الآخرين المسبقة.

ثالثاً : الفصل الخامس من الكتاب يُعد فعلاً عملا ريادياً، وقد أقر أستاذه محمد مصطفى زيادة بذلك من خلال تقديمه حيث قال : " للفصل الخامس من هذا البحث

ميزة تستوجب الإنتباه إذ عالج فيه المؤلف موضوع العلاقات الإجتماعية السلمية بين الصليبيين والمسلمين رغم ما بين الطرفين من حرب متواصلة أحياناً ومنقطعة أحياناً أخرى وهو موضوع لم يسبق إليه بين الحديثين [٣].

رابعاً : زود مؤرخنا كتابه بكشاف بأسماء الأعلام والمواقع الجغرافية فى المصادر العربية والغربية وهى زاوية لها أهميتها، ولعل مؤرخنا أ. سعيد عبد الفتاح عاشور أفاد من ذلك فى كتابه الرائد الحركة الصليبية حيث خصص قسماً لأسماء الأماكن، والمواقع الجغرافية فى مصادر الطرفين، ومن المفترض تأثره بالكتاب المذكور.

بصفة عامة، على الرغم من ظهور دراسات متعددة عن نور الدين محمود [٤] فيما بعد إلا أن اسم حسن حبشى ظل رائداً فى مجال دراسة ذلك القائد المسلم البارز ومعنى هذا أن دراسته احتفظت بقيمتها بعد صدورها بـ (٦٤) عاماً بصورة أكدت قدرة صاحبها على إعداد عمل علمى عاش مع الزمن.

من ناحية أخرى، يُعد كتاب الشرق العربى بين شقى الرحى، من أوائل الدراسات العلمية التى تناولت أحداث عصر الحروب الصليبية ، حيث صدر بالقاهرة عام ١٩٤٩م فى أعقاب كارثة حرب ١٩٤٨م، والسطو على فلسطين من جانب العصابات الصهيونية، وهزيمة الجيوش العربية وانعكس ذلك على الإهداء" الذى جاء فيه مؤرخنا منفعلا بأحداث حصار الفالوجة البطولى وكان نص الإهداء إلى جنود الفاروق العظيم أبطال الفالوجة تحية لموقفهم المجيد وبسالتهم الرائعة" (٥) مما دل على وطنيته المتدفقة.

قام المؤرخ الرائد أ. د عزيز سوريال عطية بتقديم الكتاب، فأشاد بالمؤلف الذى عرفه فى قاعات الدرس تلميذا نابهاً منذ بدايات حياته الجامعية .

من الملاحظ إدراك مؤرخنا لمحورية موقع مصر الجغرافى ودورها التاريخى، وفى ذلك قال : "لقد كانت مصر فى أدوا تاريخها المختلفة عرضة للاحتكاك بالغرب نتيجة موقعها فى مقدمة الطرق بينه وبين الشرق.

واختلفت صور هذا الإحتكاك فكان منه ما هو سياسى، ومنه ما هو إجتماعى، ومنه ما هو ثقافى، ولم يحملها تعصب ما على الإعتراض عن جديد ما كبدته، أو الأخذ بقديم ما لقدمه ولكنها كانت بونفة إنصهار ينصهر فيها الجديد والقديم معا ليخرجه فى النهاية سبيكة مصرية خالصة. ومعنى هذا أيضاً أنها خرجت بأحسن ما يؤدى إليه هذا الإحتكاك من نتائج طيبة وصبغتها بذاتيتها الخاصة [٦].

لا أملك تعليقا على هذه السطور سوى أن ألفت نظر القارىء إلى الوطنية الجارفة التى توافرت لمؤرخى ذلك العصر الذين عاصروا الإحتلال البريطانى الغاشم لأرض الكنانة ، مصر، وزرع الكيان الصهيونى فى عنوة على حدودها الشرقية

لقد أضاف مؤرخنا عن مصر كمدخل لموضوعه ما نصه : " إذا كانت مصر قد تعرضت للأخطار الخارجية فإنها كثيراً ما كانت تنهض بالحرب لا دفاعاً عن كيانها ، بل بما يقتضيها إياه واجب الجوار لبعض دول تربطها بها روابط مختلفة ، وطالما قامت بدور المدافع عن رفقة الشرق الأدنى من التوغل الحربى الأجنبى، وما يتبع ذلك التوغل من استغلال موارد البلاد الاقتصادية لصالح الفاتح"[٧].

كما أدرك مؤرخنا الرائد خطورة الحروب الصليبية، بل أشار إلى أنها ظاهرة تاريخية مستمرة من العصور الوسطى حتى زماننا هذا، أنظر قوله : " المطامع الأوربية فى بقعة الشرق الأدنى التى نعرفها اليوم بالشرق العربى وعلى هذا الأساس يمكن إلى حد ما أن نفسر التجريدات الصليبية التى بدأت بإتفاق بين المؤرخين، فى ختام القرن الحادى عشر للميلاد والتى لا زالت حتى الساعة موجهة إلى هذه الربوع مرتدية مسوحاً مختلفة" [٨].

توحى الفقرة السابقة لنا بأن ذلك المؤرخ أدرك -ضمنياً- أن زرع الكيان الصهيونى العدوانى فى فلسطين، هو جزء من مؤامرة غربية صليبية على منطقتنا العربية، خاصة أن إهداء كتابه جاء إلى الأبطال الذين حوصروا فى الفالوجة وهم ، جمال عبد الناصر ، ورفاقه .

أما رؤيته للحروب الصليبية، فقد عبر عنها من خلال قوله : "شهدت القرون الوسطى حركات خطيرة قام بها الغرب تحت ستار الدين لإستعمار الشرق الأدنى، وهذه الحركات هى المعروفة فى التاريخ السياسى بالحروب الصليبية، وعلى الرغم من كثرة الحملات التى شنها ممالك أوروبة وجمهورياتها المختلفة، إلا أنها لم تستطع تحقيق أهدافها من الوجهة السياسية أو على الأقل لم يُقدر لهذا الجانب السياسى البقاء طويلاً إذ سرعان ما تغلبت عليه قوات الشرق الأدنى وأنزلته" (٩).

كذلك إتجه إلى إبراز أهمية القرن الثالث عشر الميلادى فى تاريخ العلاقات الدولية من أجل أن يكون مدخلا لتناول موضوعه عن حملة الملك الفرنسى لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصور عام ١٢٥٠م وفى ذلك قال: " ربما كان القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) أفضل القرون بالحركات الخطيرة التى سطرت صفحات جديدة فى تاريخ الشعوب فى الشرق والغرب . فقد تبلورت فيه قوة النرمنديين . وظهر أثر الصراع العنيف بين الامبراطورية والبابوية، وبدأت جرثومة التفكير الحر فى النواحى المختلفة وفوق هذا كله وجهت نحو مصر على وجه الخصوص حملات" (١٠).

فإذا ما أتجهنا صوب كتابه الحرب الصليبية الأولى الصادر بالقاهرة عام ١٩٥٨م نجد إتساع مفهومه للحروب الصليبية، وقد عرفها على نحو فاق ما ذكره عنها عام ١٩٤٩م حيث قال عنها ما نصه : " شهدت العصور الوسطى حركة من أخطر الحركات فى تاريخ الإنسانية لما تمخضت عنه من النتائج الفعالة فى ميادين السياسة، والاقتصاد، والثقافة، والحياة الاجتماعية، وأعنى بها ذلك الصراع الطويل

الذى شغل الناس فى الشرق والغرب أمداً طويلاً، والذى تآلف المشتغلون بالتاريخ على تسميته بالحروب الصليبية وترقيمها بأرقام عديدة تبدأ أولاها سنة ١٠٩٧ وكان الهدف المتعارف عليه لتلك الحروب هو تخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين وتهيئة جو مسيحى خالص للحجاج النصارى يؤمنهم من أدائهم فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة فى فلسطين التى تنطوى على ذكريات عزيزة غالية على نفوس جميع المسيحيين رغم تباين أجناسهم وأوطانهم وألسنتهم ومذاهبهم"[(١١)].

إلا أن مؤرخنا للأسف الشديد نجده يتبنى رؤية الكونت ربان فى تعريفه للحروب الصليبية . وقد ذكر ما نصه : " لعل أصدق تعريف للحروب الصليبية يحدد ماهيتها هو تعريف الكونت ريان الشامل لها على أنها "حرب دينية خالصة، دوافعها دينية خالصة، ونرمى إلى استرداد الأماكن المقدسة عن طريق مباشر أو غير مباشر" [(١٢)].

وللتعليق على هذا الرأى نورد التالى :

أولاً : كان الأجدر بمؤرخنا المناضل ألا يشارك ذلك المؤرخ الفرنسى الذى كتب الرأى المذكور فى أخريات القرن التاسع عشر وصور الحركة الصليبية على أنها ذات طابع دينى فقط وهو أمر مغلوط ينكره حالياً مؤرخو الغرب أنفسهم فما بالنا نحن الذين وقع علينا العدوان الصليبى!!.

ثانياً : لقد تأكد للمؤرخين المتخصصين فى تاريخ الصليبيات أن هناك دوافع إقتصادية، واجتماعية، وسياسية لتلك الحركة وأن الدافع الدينى كان من أجل تجميل وجه تلك الحروب واعطائها المبرر الشرعى من خلال استرداد الأماكن المقدسة المسيحية من أيدى المسلمين.

ثالثاً : فى تقديرى المؤرخ الرائد المذكور قد تراجع عن هذه الفكرة ودليلنا ما ذكره نفسه فى كتابه المذكور حيث أورد ما نصه : " كان البابا أوربان الثانى يتحين الفرصة الملائمة لإثارة الغرب وقد نظلمه إذا قلنا أن الدين كان كل شىء فى الحركة، إذ الواقع أن البابوية كقوة لها خطورتها فى أوربة. كانت تخشى أكبر الخشية من زيادة بأس

النورمان ولعلها وجدت الفرصة مواتية للتخلص منهم بتوجيه نشاطهم الحربى لخدمة الدين والكنيسة فى الشرق. وإبعادهم عن مسرح السياسة الأوروبية " (١٣).

وهكذا، فإن السطور السابقة تؤكد تماماً على أن الأمر لم يكن دينياً خالصاً بل هناك الدافع السياسى البارز الذى لا يمكن إنكاره من خلال رغبة البابوية فى التخلص من نفوذ النورمان، وبالتالى فإن مقولة الكونت ريان السالفة الذكر لم يوردها مؤرخنا من خلال اقتناع تام لأنه عاد وذكر ما يعارضها فى نفس الكتاب.

فى تصورى أن أستاذنا أ. حسن حبشى أورد مثل هذا الرأى وفيما بعد تراجع ضمنياً عنه، لأنه أدرك وجود دوافع عديدة لتلك الأحداث العاصفة فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، وهو أمر أدركه من خلال حواراتى الممتدة معه على مدى الثمانى سنوات الأخيرة من حياته وتحديداً من ١٩٩٧ إلى ٢٠٠٥م ، فتعلمت منه الشىء الكثير وأدركت فعلاً أنه صاحب رسالة علمية !!

بصفة عامة نجد مؤرخنا يتأثر برؤية المؤرخين الفرنسيين ، ولا أدل على ذلك من جعل إسم لويس التاسع فى عنوان كتابه السالف الذكر مقرونا "بالقديس" ، ودل ذلك على تأثره برؤية المؤرخ المعاصر وكاتب سيرته جان دى جوانفيل Jean de Joinvilee والمفترض أنه يتعامل معه كملك فرنسى من أسرة آل كابيه التى أسسها هيو كابيه Hugh Capet وكانت له أطماعه السياسية والاقتصادية من أجل توسيع نفوذ تلك الأسرة الفرنسية الحاكمة من خلال تكوين أملاك لها فى الشرق.

وكإستمرار لتلك الزاوية نجده يقرر "تقوى" ذلك الملك !! أنظر إلى قوله : " لم يترك لويس التاسع وسيلة لتحقيق أمنيته فى القضاء على مصر والشرق الإسلامى إلا واصطنعها ، فنراه وهو المسيحى "التقى" لا يرى غضاضة حتى فى مد يده إلى المغول، ومحاولته الإتفاق معهم لما يدركه فيهم من الرغبة العنيفة الملحة فى إزالة القوى الإسلامية ليسهل عليهم بعدئذ الإنطلاق فى ربوع العراق والشام ومصر وشمال أفريقية (١٤).

واقع الأمر فى عالم السياسة، لا توجد "تقوى" خاصة من خلال خبرتنا فى التعامل مع الصليبيين الذين أرادوا السيطرة على كنوز الشرق من توابل وحرير، ورقيق، ذهب وتصوير لويس التاسع على أنه تقى يجعلنا وكأننا نكتب بعقول وأقلام فرنسية !!

بصفة عامة كتاب الشرق العربى بين شقى الرحى كتاب رائد بمقاييس عصره وزمن صدوره لكن لنا بعض الملاحظات عليه لا تقلل من قيمته وتتمثل فى التالى :

أولاً : لم يتم تقسيم الكتاب إلى فصول معنونة، بل جعله مقسماً إلى أرقام !!.

ثانياً : لم يزود الكتاب بخرائط من خلال الأطالس الجغرافية المعتمدة، حيث أن الخرائط تعيق رؤية التاريخ كواقع حى معاش فى زمانه .

ثالثاً : لم يزود الكتاب بقائمة ببليوغرافية تحوى المصادر والمراجع التى أعتمد عليها فى تأليفه، وهو أمر أساسى فى الكتابة الأكاديمية.

رابعاً : لم يحتو الكتاب على خاتمة فيها النتائج التى توصل إليها المؤلف.

مع ذلك فعلينا تقدير الجهد الذى بذله المؤلف الذى أفاد من مصادر عديدة فى صورة ما ألفه المقريزى فى السلوك لمعرفة دول الملوك . وابن واصل فى مفرج الكروب، وأبو الفداء فى المختصر فى أخبار البشر، وغيرهم بالإضافة إلى مراجع فرنسية وأنجليزية نظراً لإجادته اللغتين المذكورتين.

ومما يذكر لهذا المؤرخ البارز توجهه نحو التفسير النفسى للتاريخ عند تناوله للصالح نجم الدين أيوب، وفى ذلك قال: "التاريخ يحدثنا أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب كان رجلاً متناهياً فى الشدة يأخذ الجميع بالصغيرة والكبيرة، والظاهر أنه كان رجلاً فيه ميل للإنتقام يؤثر رؤية الدم، وكأنه من أتباع مذهب السادية الذى يقول به علماء النفس. وهل يمكننا أن نفسر أن التوسل لديه .. لا يُقبل والشفائع لديه لا تؤثر . فلا يزداد الأمور بهذه الأمور التى تسل سخائم الصدور إلا إنتقاماً (وفق ما

ذكره مؤرخنا نقلاً عن ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة) أقول هل يمكننا تفسير هذا إلا على ضوء النظرية النفسية السالفة وحسبنا أن نشير فى عجل إلى أنه قتل أخاه الملك العادل، ومات فى حبوسه ماينيف على خمسة آلاف نفس، كما أنه فى مرة أخرى شنق كثيراً من الكنامين لأنهم خرجوا من المدينة بغير إذنه (١٥).

وفى تصورى أن مؤرخنا هنا يشير لأول مرة إلى التفسير النفسى فى فهم تاريخ الحروب الصليبية. ويعد أول من سلك ذلك التوجه، وفى تقديرى أن دراسته لدبلوم التربية وعلم النفس أفاده فى هذا الأمر.

من جهة أخرى، فى معرض تعرفنا على رؤيته للحروب الصليبية نجده يرفض وصف حملات الأباطرة البيزنطينيين العسكريين مثل نقفور فوكاس Nicephore Phocas (٩٦٣-٩٦٩م) على أنها حروب صليبية وبالتالى أختلف مع تصور المؤرخ الفرنسى رينيه جروسيه Réne Grousset واليوغوسلافى جورج استروجورسكى George Ostreogorsky وكان رأيه ذلك صائباً تماماً لأن الحركة الصليبية قامت من الغرب الأوروبى وقادتها البابوية ولم تكن صنيعة بيزنطية .

كما تعرض لخطاب البابا أوربان الثانى Urban II (١٠٨٩-١٠٩٩م) فى مجمع كليرمونت بفرنسا وأشار إلى أهميته المحورية فى الدعوة للحروب الصليبية، وذكر أنه يؤثر من المصادر التى تناولت خطبة ذلك الباب روبرت الراهب، وفوشيه الشارترى دون أن يذكر لنا سبب تفضيله لهذين المصدرين على نحو خاص.

بصفة عامة، نلاحظ تطوراً فى منهجه أستاذنا حسن حبشى جنس فى كتابه عن الحرب الصليبية الأولى مقارنة بكتابه الشرق العربى، إذ أنه قسم دراسته عن الحرب الصليبية الأولى إلى ستة فصول جاءت على النحو التالى :

الفصل الأول : الشرق الإسلامى وبيزنطة.

الفصل الثانى : الحملة فى الشرق.

الفصل الثالث : طلائع الصراع مع سلاجقة الروم .

الفصل الرابع : الصليبيون فى أنطاكية.

الفصل الخامس : فن الطريق إلى بيت المقدس.

الفصل السادس : فتح بيت المقدس.

كما زود كتابه بخرائط وكشاف بأسماء الأعلام والأماكن والمواقع وقائمة بالمصادر والمراجع.

هكذا فى مقدورنا القول أن ذلك المؤرخ قدم لنا دراسة سياسية مركزه عن الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) فى وقت مبكر وتحديداً عام ١٩٥٨م مع ذلك فبعد ذلك بخمس سنوات وتحديداً عام ١٩٦٣م أصدر أ.د جوزيف نسيم يوسف دراسة رائدة وفريدة بعنوان : العرب والروم اللاتين فى الحرب الصليبية الأولى امتازت بوجود تعريف للمصادر وغزارة التفاصيل وتوافر ملاحق من نصوص مصرية على نحو جعلها تمتاز على دراسة أ. حسن حبشى مع تقديرى التام لريادة عمله العلمى فى هذا الشأن وعلينا الإقرار هنا أن كل مؤرخ رائد لم يكن عمله يلغى عمل المؤرخ الآخر بل الكل يكمل بعضه بعضاً.

ومن ناحية أخرى، نجد مؤلف الحرب الصليبية الأولى يعلق على نهاية تلك الحملة قائلاً : "على هذه الصورة القائمة إنتهت الحملة الصليبية الأولى بالنجاح الذى يسره لها – قبل كل شىء – تنازع الأمراء المسلمين فيما بينهم فى الوقت الذى كانت فيه رعاياهم تتحرك شوقاً إلى الوحدة لتصدى الخطر الأوروبى الغربى الذى ليس مسوح الدين، لكنه سرعان ما سقط القناع لتتجلى الأطماع الشخصية والرغبة فى التملك والسيطرة، والحكم وتكوين الإمارات على حساب القوى الإسلامية المبعثرة فى الشرق الأدنى [١٦].

واقع الأمر لم يكن ذلك هو السبب الوحيد إذ أن الصليبين تملكوا القوة العسكرية الكاسحة وهاجموا المنطقة فى عصر ضعفها، ولذلك نجحوا وسط ضعف القوى الإسلامية المتصارعة خاصة بين خلافة عباسية سنية فى بغداد وأخرى فاطمية شيعية فى القاهرة وكانت بلاد الشام منطقة وسطى بين القوتين المتصارعتين ولا نغفل كذلك امتلاك الصليبيين سلاح المعلومات [١٧] ومعرفتهم كافة ما احتاجوه عن المنطقة من خلال الجواسيس والحجاج والتجار ولا نغفل كذلك معاونة المسيحيين الشرقيين فى بلاد الشام خاصة موارنة لبنان Maronites وهكذا هناك عوامل عديدة كانت تقف وراء نجاح تلك الحملة ولم يكن هناك عامل واحد فقط كما قرر مؤرخنا.

من جهة أخرى، حظى صلاح الدين الأيوبى بتقدير مؤرخنا وفى ذلك ذكر عنه ما نصه : " صلاح الدين الأيوبى الذى لم يذق طعماً للراحة حتى أذاق الدخلاء مرارة الهزيمة وذل الإنكسار، وطعنهم طعنة أوصمت منهم القلوب، وتركت فيهم جرحاً لا يندمل، يوم وقع فى أسره ملك بيت المقدس وباروناته وكندصطبلاته وكبار المتنفذين وذلك فى وقعة عرفت قرون حطين يوم الرابع من يوليو ١١٨٧ (ربيع الثانى ٥٨٣هـ) ومحت حطين العار الذى استمر من يوم ١٥ يوليو ١٠٩٩ يوم أحتل الفرنجة القدس حتى استردها المسلمون أى بعد أن ظل هؤلاء الصليبيين محتليها قرابة ثمانية وثمانين عاماً" [١٩].

لا ريب فى أن هذه السطور تدل على المكانة التى كان يكنها أستاذنا الرائد لصلاح الدين الأيوبى فارس الجهاد عصر الحروب الصليبية.

كذلك نلاحظ أن جهد مؤرخنا الرائد فى التقديم لترجماته للمصادر الصليبية يعد جانبا أساسياً فى تناول وتقييم رؤيته للحروب الصليبية.

فى هذا المجال، نذكر له مقدمته عن المؤرخ الصليبى البارز وليم الصورى William of Tyre (ت١١٨٦م) حيث قدم عرضا مهما عن ذلك المؤرخ [٢٠] ، وإسهامه فى الكتابة التاريخية . ومع ذلك لم يكن متوافراً لديه الفصل المفقود من تاريخ

الأعمال Historia rerum الذى نشره د. هاينز R. Huygens وتمت ترجمته إلى الإنجليزية وقام كاتب هذه السطور بترجمته ودراسته (٢١) وكان من شأن الإطلاع عليه تقديم مادة علمية مهمة عن ذلك المؤرخ خاصة خلال وجوده فى الغرب الأوروبى على مدى عشرين عاماً دارساً العديد من العلوم خلال ما عرف بنهضة القرن الثانى عشر.

أما فيما يتصل بترجمته لما ألفته الأميرة البيزنطية أناكومنينا Anna comnena (١٠٨٣-١١٥٣م) تحت عنوان الكسياد Alexiad فقد بذل فيه جهداً كبيراً وقد وقع الكتاب المذكور فى (٦٤٤) صفحة، وكما تتضح لنا الصورة تجده فى المقدمة يشير إلى خطته قائلاً : "لقد ترجمت ما بين يدى القارىء عن ترجمتين إنجليزيتين للألكسياد أما إحداها فهى نسخة اليزابيث داوس Daws وأما الترجمة الثانية فللأستاذ سوتر Sewter وقد قارنت بين الترجمتين الإنجليزيتين وأثبت فى الحواشى ما بينهما من اختلاف أو تفسير . ولم أعلق كثيراً على ما فى هذه الإختلافات من أمور قد تبدو غريبة، وإنما كان همنا أن يخرج هذا الكتاب إلى العربية مصححاً بقدر الإمكان" (٢٢).

يلاحظ أن ذلك المؤرخ والمترجم القدير لا يكتفى بالترجمة فقط، بل يناقش ويحلل وينتقد، ونجده فى مقدمته للكتاب المذكور يقول عن المؤلفة ما نصه : "حين تناولت الحرب الصليبية الأولى لم تشر أبداً إلى إيربان الثانى (١٠٨٨-١٠٩٩) رغم الدور الكبير الذى لعبه فى هذه الفترة وما ينجم عنه من آثار أمتدت أكثر من قرنين من الزمان ، فكيف نعلل سكونها هذا وعدم ذكر أى بابا من بابوات هذه الفترة .. تُرى أكان اغفالها إياهم جهلا منها بهم ؟ إن الرد على ذلك بالنفى فهى عالمة بأسمائهم وبأسماء الكثير ممن ظهروا على مسرح السياسة العالمية حتى ولو لم يكونوا ذوى أثر فعال فى الأحداث المرتبطة ببيزنطة وبالمسيحية الشرقية فى سنوات بابويتهم" (٢٣).

" لكن الرد على هذا التساؤل الناجم عن سكونها المريب هو أنها كانت كارهة لكل ما هو غربى لاسيما فى الناحية المذهبية المعارضة تمام المعارضة للمذهب الشرقى. وأعنى به المذهب الأرثوزكسى لكن ما كان ينبغى لمثل هذه الكراهية أن تطوى أعمالهم فى كتاب مثل تاريخها هذا".

ثم كيف نفسر إهمالها إتصال الكسيوس كومنبن الأول نفسه عن طريق مبعوثيه بإيربان الثانى سنة ١٠٩٥ وهو فى مؤتمر بباتشنزا Piacenza ليسنده فى محاربة السلاجفة وفى رد عاديتهم "[٢٤].

أما فى ترجمته لكتاب :

Chronicle of the Third Crusade, a Translation of the Hinerarium Perogrinorum et gesta Regis Ricardi, Trans. Helen Nicholson , London 1997 [25].

فقد أشار مؤرخنا الرائد إلى ما ألفه جودفرى أوف فنزوف Godfrey of Viunsauf حيث قال ما نصه : وتكاد هذه النسخة تكون هى نفس النسخة التى ترجمتها الأستاذة هيلين نيلكسون، ولا أدرى كيف فاتها ملاحظة هذا التشابه الذى يصل إلى حد النقل والمطابقة، إن لم نسرع فنقول إنهما كتاب واحد ولكن اختلفت نسخة كل منهما لم يكون المؤلف ، فهل فاتها الإطلاع على هذه النسخة ؟ لا أظن"، هكذا يمكن ذلك المؤرخ الرائد بفضل إجادته التامة للإنجليزية وخبرته العلمية وقدرته على التحقيق والتحليل تمكن من نقد عمل تلك المؤرخة البريطانية البارزة التى تعد من أبرز المؤرخات على مستوى العالم فى مجال الصليبيات، على نحو دل بجلاء على ما تمتع به من روح علمية ناقدة على الرغم من أن ذلك العمل صدر وكان قد بلغ من العمر (٨٥) عاماً إلا أنه تمتع بذاكرة قوية وذهن وقاد على الرغم من تقدم السنين به !!

بصفة عامة ، أثبت ذلك المؤرخ أن "المؤرخ المترجم" لا نتوقف مهمته العلمية عند نقل النص المترجم إلى اللغة العربية فقط، بل يحلل وينقد ويصل إلى نتائج لا

يتمكن المترجم الذى لا يملك أية خلفية تاريخية من التوصل إليها، والأمر المؤكد أن خبرته التحقيقية مكنته من ذلك.

خلص البحث إلى عدة نتائج يمكن إجمالها على النحو التالى :

أولاً : يُعد أ.د. حسن حبشى مؤرخا رائداً لتاريخ الحروب الصليبية من خلال ثلاث دراسات هى : نور الدين والصليبيون، والشرق العربى بين شقى الرحى، والحرب الصليبية الأولى وقد بدأ إصدار مؤلفاته منذ عام ١٩٤٩م، فى وقت لم يكن هناك كتابات أكاديمية عن عصر الحروب الصليبية، وبالتالى من الممكن وصفه بأنه ثانى مؤرخ مصرى وعربى يكتب عن تلك المرحلة بعد سيد الحريرى الذى أصدر فى أوائل القرن ٢٠م بعنوان : الأخبار السنية فى الحروب الصليبية.

ثانياً : تأثر مؤرخنا الفاضل أحياناً برؤية المؤرخين الفرنسيين خاصة تجاه الحملة الصليبية الأولى وكذلك دور الملك لويس التاسع خلال الحملة الصليبية على مصر عام ١٢٥٠م.

ثالثاً : كان لمؤرخنا إسهاماته فى التأليف والترجمة والتحقيق وقد شغل بالترجمة والتحقيق أكثر مما ساهم فى مجال الكتابة التاريخية، ومع ذلك فإن ترجماته. تقدم لنا مادة تاريخية مهمة من خلال مقدماته التى كتبها ، وكذلك التعليقات الثرية على النص الأصلى، على نحو أكد ريادته كمؤرخ ومترجم بالإضافة إلى كونه من كبار محققى التراث فى العالمين العربى والإسلامى.

رابعاً : علينا ملاحظة أن ذلك المؤرخ الرائد تطورت رؤيته لتاريخ الحروب الصليبية مع توالى الأعوام وما كان قد كتب فى مراحل حياته الأولى فى هذا الشأن عاد عنه بصورة أو بأخرى على نحو يدل بجلاء أن المؤرخ الواحد تتطور لديه تصوراته عن تلك الحركة التاريخية الكبرى فى عالم العصور الوسطى. وعلى مدى أعوام عديدة من الإتصال اليومى به خاصة خلال الأعوام الثمانية

الأخيرة من حياته لم أجده ينبنى أية إتجاهات فرنسية فى كتاباته أو أحاديثه، بل كان معبراً صادقاً عن توجه إسلامى خالص.

ذلك عرض عن أ. حسن حبشى (١٩١٥-٢٠٠٥م) مؤرخا للحروب الصليبية.

الهوامش

(١) **عن حسن حبشى أنظر:**

محمد مؤنس عوض ، أ. د حسن حبشى مؤرخ مصرى رائد للعصور الوسطى ضمن كتاب عصر الحروب الصليبية لبحوث ومقالات، ط. القاهرة ٢٠٠٥م ، ص ٢٥٥-٢٦٥، نفسه، رواد تاريخ العصور الوسطى فى مصر، سلسلة تاريخ المصريين، ط القاهرة ٢٠٠٧، ص ٢٦٥، ص ٢٧٧.

(٢) **حسن حبشى،** نور الدين والصليبيون حركة الإفادة الإسلامية فى القرن السادس الهجرى، ط القاهرة ١٩٤٩م، ص ٦-٧

(٣) تقديم محمد مصطفى زيادة للكتاب المذكور ، ص ٤

(٤) **عن تلك الدراسات أنظر :**

محمد مؤنس عوض، فى الصراع الإسلامى الصليبيى السياسة الخارجية للدولة النورية ، ط القاهرة ١٩٩٦م، نفسهنفسه، نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى فارسان مجاهدان من عصر الحروب الصليبية ، ط القدس ٢٠١٥م، علياء ديب تبريزى ، المخطط الأعظم لتحرير القدس نور الدين محمود ط ٢٠٠٣م، ليلى عبد الجواد السلطان الملك العادل نور الدين محمود، ط القاهرة ٢٠٠٦ صنيعة عبد الله سرحان، العلاقات السياسية بين مصر الشام فى عصر الملك العادل نور الدين محمود (٥٤١-٥٦٩هـ/ ١١٤٧-١١٧٢م رسالة ماجستير غير منشورة . الرئاسة العامة لتعليم البنات بالرياض عام ١٤١٠هـ، بخيت محمد حفنى، تل باشر ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى حتى استرداها على يد نور الدين محمود (٥٤٦/١١٥١)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب – جامعة حلوان عام ٢٠٠٣م .

H.Gibb, "The Career of Nur ad Din ", in a history of the crusades , ed . K. Setton, Vol.I, Wisconson 1989, pp 513-527

N. Elisseeff, Nur ad-Din un grand prince Musulman au Temps des Croisades, 3 Vols, Damas 1967.

كافة هذه المؤلفات تدل بجلاء على أهمية ومحورية الدور التاريخى الذى قام به نور الدين محمود فى الجهاد ضد الصليبيين.

(٥) حسن حبشى، الشرق العربى بين شقى الرحى، حملة القديس لويس على مصر والشام ، ط. القاهرة ١٩٤٩م، ص ٣.

(٦) نفسه، ص ١٢

(٧) نفسه ، نفس الصفحة

(٨) نفسه، نفس الصفحة

(٩) نفسه، ص ٩

(١٠) نفسه ، ص ١٠

(١١) حسن حبشى، الحرب الصليبية الأولى، ط القاهرة ١٩٥٨م، ص ٥

(١٢) نفسه ، ص ٧

(١٣) نفسه ، ص ٥١

(١٤) حسن حبشى، الشرق العربى بين شقى الرحى، ص ١١

(١٥) نفسه ، ص ٤٥

(١٦) حسن حبشى، الحرب الصليبية الأولى، ص ١٩٥

(١٧) عنه أنظر : محمد مؤنس عوض، سلاح المعلومات ودوره فى تاريخ الصليبيين خلال المرحلة من ١٠٩٥ إلى ١١٨٧م ،مجلة بحوث الشرق الأوسط، العدد (٢٨) مارس ١٣٢١١٣٧٤ ص ١١-٤٦

(١٨) عن دعم الموارنة للصليبيين أنظر :

William of Tyre, A History of deeds done beyond the sea, Trans. E.A Babcock and A.C. Krey. Vol. II , New York 1943, p 485

K. Salibi, "The Maronites of Lebanon under the Frankish rule", R.E.A., IV, 1957, P .289.

H.E. Mayer, The Crusades, Trans John Gillingham, Oxford 1972, P .276.

R. Smail, The Crusaders in Syria and the Holy Land, London 1974, P .161.

بطرس ضو، تاريخ الموارنة الدينى والسياسى والحضارى، حـ ٣، ط . بيروت ١٩٧٧م، ص ٤٣٥ – ص ٤٤٠ ، محمد مؤنس عوض، ملامح تاريخ موازنة لبنان عصر الحروب الصليبية، ضمن كتاب عصر الحروب الصليبية بحوث ودراسات ، ط القاهرة ٢٠٠٦م ، ص ١٦٦ ، محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد (عصر الحروب الصليبية) ط . القاهرة : ١٩٧٧م، ص ٩٠-٩١

(١٩) مجهول، ذيل وليم الصورى، ت . حسن حبشى، سلسلة تاريخ المصريين، ط القاهرة ٢٠٠٢م، ص ١٠

(٢٠) وليم الصورى، الحروب الصليبية ت حسن حبشى، سلسلة تاريخ المصريين ، ط القاهرة ١٩٩١م ص ٩-٤٣ لا أغفل الإشارة هنا إلى صدور ترجمة سابقة لوليم الصورى من خلال جهد أ.د. سهيل زكار ، ط .دمشق ١٩٩٠ م إلا أن ترجمه حسن حبشى أفضل نظراً للتعليقات

الثرية على النص الأصلى ناهيك عن خبرته العريضة كمؤرخ ومترجم ومحقق مع تقديرى التام لجهد المؤرخ السورى البارز الذى نذكر له دوماً إصداره للموسوعة الشاملة فى (١٠٤) مجلة وهى عمل علمى جدير بكل تقدير.

(٢١) عن ذلك أنظر :

R. Huggens, " Guillanme de Tyre étyudiant : un chapidtre (XIX, 12), de son "Historie" retrouré" latomus 21, 1962, 11-811-829. Trans. G.A. Loud and J.W. Cox, in The Crusades. An Encyclopedia, ed. Alan V. Murray, IV, Oxford 2006, PP 1305-1307

محمد مؤنس عوض، الفصل التاسع عشر (XIX) من تاريخ الأعمال Historia rerum للمؤرخ الصليبى وليم الصورى (ت ١١٨٦م) ترجمة ودراسة ،ضمن كتاب الحروب الصليبية دراسات فى الجغرافيا والتاريخ، ط القاهرة ٢٠٠٥م، ص ١٩٨–٢١٥

(٢٢) أنا كومنينا ، ألكسياد للمؤرخة اليونانية الأميرة أنا كومنينا ت . حسن حبشى، المجلس الأعلى للثقافة، ط . القاهرة ٢٠٠٤م، ص ٢٢

(٢٣) نفسه ، ص ٢٠

(٢٤) نفسه، نفس الصفحة

(٢٥) مجهول . الحرب الصليبية الثالثة، صلاح الدين وريتشارد، ت. حسن حبشى سلسلة تاريخ المصريين . ط ١، ط القاهرة ، ٢٠٠٠م، ص ١٩